الجيرينيكا.. زمن الحرب والسحر

د. هاني حجاج - مصر

كاتب ومترجم

"هتلر" يجتاح العالم بجيوشه الجرارة، والحرب الأهلية تشتعل في "أسبانيا"، عندما بدات قرية "الجيرينيكا" الأسبانية تتعرض للقذف النازي، فكان من الطبيعي أن يغلي اللهيب في روح فنان ثائر تجري في عروقه الدماء الإسبانية الحارة وحمى الفن المجنون مثل "بيكاسو" ..

في باريس جاءته الأنباء الحزينة، وكان قد هاجر إليها ليروي ظمأه للفن، ولأنه أيضًا كان على خلاف مع الفاشيست، وفي الواقع فإن اليوم الذي أعلن فيه التاريخ بداية ميلاد رحلة الحرمان والمجد هو يوم الخامس والعشرين من مارس عام ألف وتسع مئه وواحد، عندما عرفت أزقة "باتولافورا" الشاب المعدم "بابلو بييجو فرانسيسكو خوان نيبو بورثينو ماريا دي لوسس ريميد يوس لبريانودي سانتيما تيرينيداد بيكاسو" عندما عرف أول امرأة في حياته، "فيرناند أوليفييه" عام 1904م، التي تركت زوجها النحات المخبول لتشارك "بابلو" عاطفته الثائرة وكفاحه المضني والحب الحارق في قلبه، هذا الحب الذي كان سببًا في رحيلها عنه، إذ دخلت امرأة أخرى حياته، هي "إيفا جويل" التي سرقها من عشيقها عام 1911م، ليسرقها الموت منه ليصبح وحيدًا مرة أخرى.

بكل أحزانه على فراقها راح يبكي بدموع من دم تحت قدمي الباليرينا "أولجا كاكلوف" التي تزوج منها فيما بعد، لكنه لم يكن سعيدًا معها تمامًا، لأنه شعر بأنه يفقد حريته تحت وطأه محاولاتها المستمرة في تحويله إلى إنسان (عادي) يحيا بشكل تقليدي كالآخرين، وليمارس حياة هادئه ليرضي مطالب زوجته المدللة، ولكن "بيكاسو" لم يكن من هذا النوع على الإطلاق، فراح يبركان العواطف المتدفق بين جوانحه يلقي بنفسه بين أحضان الشقراء "ماري تيريز والتر" .. التي لا تروي كل ظمئه، فيحاول أن ينهل من الحب هذه المرة من يدي السمراء "دورا مار"، ثم تأتي "فرانسواز جيلو" لتدخل حياته في 1945م، ثم تتركه لتفضح أدق أسراره ونزواته، عندما تقرر أن تكتب مذكراتها، لكنه أخيرًا يستقر مع "جاكلين روك" التي احتملته في صبر.

وكانت وفاة رفيق كفاحة "كارلوس كازاجيماس" هي أول نقطة زرقاء تلمس لوحات "بيكاسو" فيما عرف بعد ذلك بالمرحلة الزرقاء، وكان "كارلوس" قد شاركه شقاءه في حي "مونمارتر"، قبل انتقاله إلى شارع "كليشيه"، ليتعرف هناك على فتاة تدفعه إلى معاقرة الخمر والانتحار. وقتها قال "بيكاسو": "إن الحزن العميق هو ما يصنع الفن الأصيل"، ورسم وقتها أشد لوحاته قتامة ... "مأتم" و"جنازة".. ورسم المشوهين والمومياوات والعجائز والجثث.

وبدأ يشبه أسلوبه أسلوب التأثيري "بيير برنار" (1867-1947) بتضمين الموضوع واستخدام اللون الرمزي والابتعاد عن البعد الثالث بتسطيح المساحة، وحتى ملامحه، بشعره الخفيف ونظرته المذهوله الحائرة.

وشيئًا فشيئًا تبدأ البهجة في العودة إليه ثانية، ليدخل فن "بيكاسو" المرحلة الوردية، لتشتعل لوحاته بحيوية وشباب باريس، وفي المدة التي شهدت إنقسام السيزانيين، تولى "بيكاسو" زعامة الطائفة التي نادت باقتباس لمسة من وحشية الفن الإفريقي، بينما تزعم "مارتيس" فريق المحافظين، ومن هذه اللمسة الزنجية البدائية ابتكر "بيكاسو" أسلوبه الشهير ... "التكعيبية" (ومن المفارقات أن يعود ماتيس إلى بلده محبطًا عام 1902م، وهو العام نفسه الذي ترك فيه بيكاسو ليعود إلى برشلونة .. وإن يدخل كل منهما مرحلته الزرقاء في الوقت ذاته عندما رسم بيكاسو "جنازات" ورسم ماتيس "العاريات الزرقاوات".. بالرغم من الفارق الشاسع بينهما، إذ كان بيكاسو فوضويًّا مستهترًا بينما كان ماتيس شديد التحفظ، كما يؤكد كتاب "ليوستين" الشهير "تذوق"، وبينما كان ماتيس يقول: "أريد أن أصنع فنًّا يتسم بالنقاء والرقي .. يهدئ الأعصاب ويريح البال". كان بيكاسو يقول: "ولماذا يكون الفن مفهومًا وواضحًا؟.. لماذا يكون أي شيء مفهومًا وواضحًا؟"

وفي باريس جاءته أنباء الاعتداء الغاشم على قرية "الجيرينيكا"، فتثور الدماء الحارة في عروقه وتغلي روحه بلهيب الغضب والعصيان، وكانت سكينه التي يغرسها في قلب الغازي هي فرشاته، فبعد أن ملأ صفحات الجرائد، والمجلات وقتها بعشرات المقالات يندد بالقذف، رأي أن كل هذا لا يكفي، وغرس فرشاته في قلب ألوانه، وكان وقتها يمر بمرحلته الوردية مما جعل لوحته "الجيرينيكا" تشتعل بحراره لهيب نار الغضب، ويري البعض أنه لو كان العدوان قد حدث في أثناء المرحلة الزرقاء لاختلف الأمر كثيرًا، ولعلاها اليأس والوجوم وكراهية العالم في صمت، أما الآن وكل الألوان النارية تشتعل في يده وكل مقته للنازي يتحرك في روحه وذكريات سنوات من الحرمان تعود لتحتل العالم أمام عينيه.

كما يضع الكاتب عدة مسوّدات لنصُّه الأهم، أخضع بيكاسو لوحته جيرنيكا لعملية تأليف وإنشاء مثيرة ومعقدة؛ فأمضى ذلك الشهر من عام 1937 في تنفيذ عدة مسوّدات ومخططات وتصاميم تمهيدية ورسوم تجريبية للتحضير قبل العمل. بلغ عددها 61 سكتشًا، عاملها الفنان بأهمية العمل الفني ذاته، فأرّخها ووقّعها. حملت الرسوم انفعالاته اليومية وانطباعاته عن الأشياء المختلفة في أطواره المزاجية المعروفة بالتقلُّب المستمر، وسجلت لصعوبات العمل وتجهيزات اللوحة الجدارية والتصميم البنياني العام، وأصبحت هذه المخططات مادة إضافية لدراسة اللوحة نفسها، وقال بيكاسو عن ذلك: "إنه لمثير حقًّا أن نحتفظ بصور فوتوغرافية ليس لأطوار لوحة معينة بل لتحوّلاتها. فلعلنا نستطيع إذ ذاك أن نستكشف المسار الذي يسلكه الذهن في تجسيده للحلم. ولكن في الأمر ما يثير الاستغراب. ذلك أننا نلاحظ أن الصورة لا تتغير أساسًا، وأن الرؤيا الأولى تبقى هي هي تقريبًا، برغم اختلاف المظاهر."

ذلك أن جيرنيكا مرّت بعملية تنفيذ من سبعة أطوار رئيسية سجّلتها آلة تصوير رفيقته اليوغسلافية دورا مار والتي كانت موديل لعدة لوحات للفنان. في السكتش الأول رسم بيكاسو خطوط بسيطة معبّرة لبناء محترق وأربع شخصيات: المقاتل والحصان والثور وحاملة القناديل. كلها مستمدة من جو (مصارعة المينوتور) كما خلقت الرومانتيكية إبداعاتها وسط الطبيعة العارية العذراء، وحاكت خيوطًا متينة ما بين الإنسان والهندسة الغنية بجُملة من الشواهد والنُّصُب التي انتشرت، وأثرت على مفهوم الميلانخوليا؛ فبدأ الفنان التعبير عن انفعالاته عبر هذه الرؤية الأولى، التي باتت أضيق من أن تستطيع تصوير هول المأساة، فمثلاً تفرعت الشخصية النسائية إلى أربع شخصيات، بحيث صارت عملية التعديلات والتأليف مسارًا من الطفرات المتناقضة عبَّر عنه كريستيان زيرفوس؛ الرسم بواسطة النقض، الرسم بالضد، من تقاطع وتضافر أحداث تؤدي إلى الاصطراع بين المشاعر والأفكار في روح عبقرية استثنائية.

الرمزيات التي رسمها "بابلو بيكاسو" في "الجيرينيكا" تتناثر هنا وهناك على أرضية اللوحة، وهذه الفوضوية المقصودة تشير بأصبع الاتهام إلى نظام العالم المهترئ المفكك، حيث كل شيء أصبح ممكنًا، وكل شيء صار من الممكن تبريه، وحتى أي مصير، أصبح متوقعًا.

جاءت "الجيرينيكا" بعد ظهور المدرسة الوحشية "Faussism" بسنوات، لكن "بيكاسو" هنا لا يري وحشية النازي فحسب، بل يري وحشية العالم إزاءه طوال سنوات الحرمان التي عاناها، والحيوانات في اللوحة خرجت من ذكريات طفولته لتتحول إلى رمز للطغيان.

الوجوه المتصلبة في "الجيرينيكا" ترمق الأحداث سلبًا، أو هي لا تبالي بما يتم اقترانه من إثم، ولا يعنيها حجم الألم، كما يلاحظ في التركيب البنائي للمشهد وجود خيط من الإيقاع الخفي يربط بين الوجوه المتشنجة.

وبينما "بيكاسو" منهمكًا في تصوير اللحظة الزمنية بكل توترها، تتطبع من ماضي الفنان صورة الثور الهائج المليئة بالدلالات، وحتى الخنجر المضي صار شعاعًا وسط كل هذا الظلام، .. وأخيرًا يعلن "بابلو بيكاسو" عن وجوده في لوحته مصورًا نفسه جوادًا صارخًا إزاء كل هذه الأحداث.

إن التعبيرية التكعيبية هي التي كانت وراء ترابط عناصر "الجيرينيكا"، لكن الرموز التي استعادها الفنان من شبابه وطفولته، جعلتها صعبة التصنيف، إلا أنه من المؤكد أن "الجيرينيكا" لو كانت قد رسمت في مرحلة مثل مرحلته الكلاسيكية مثلاً لاختلف الأمر تمامًا. ويقول "بابلو بيكاسو": "إن اللوحات ليست أدوات للزينة تعلقها في دارك، والفنان ليس مجرد حرفي يعمل بالقطعة، بل هو رجل سياسي، ولوحاته ليست إلا أسلحة للدفاع والهجوم على الأعداء".

وفي حقبة احتلال الألمان لفرنسا كان الجنود الألمان يزورون منزله الذي تحول إلى معرض فني، وسألوه عن لوحته الجيرينيكا: "هل أنت الذي صنعت هذا؟"

فأجاب: "بل أنتم الذين صنعتموه!!"

كلود مونيه

رائد الانطباعية

يعد الرسّام الفرنسي كلود مونيه رائد المدرسة الانطباعية أو التأثيرية في الرسم، قام بإنجاز لوحة جديدة عام 1872 ، وسماها "انطباع، شمسٌ مشرقة"، ولما كان الأول في استعمال هذا الأسلوب الجديد من التصوير، فقد اشتق اسم المدرسة الجديدة من اسم لوحته: الانطباعية.

في عام 1860 التحق بالجيش وأرسل إلى الجزائر، ومن هناك كتب يصف وقع الألوان الشديدة والألوان المتوهجة في هذه البلاد الشرقية على نفسه. ولكن أصابته بحمى التيفويد عجلت بتسريحه من الجيش، فغادر الجزائر راجعًا إلى باريس ليواصل تعلمه للفن، وهناك توطدت علاقته مع بعض الفنانين الشباب أمثال رينوار.

في أواخر سنة 1860، مونيه ورسامون آخرون مشابهون تقابلوا مع اعتراض من أكاديمية الفنون الجميلة المحافظة التي أقامت عرضها السنوي في صالون باريس. خلال الجزء الأخير من سنة 1873، مونيه، أوجست رينوار، كاميل بيسارو وألفرد سيسلي نظموا جماعة المجهولين من الرسامين والنحاتين والنقاشين لعرض أعمالهم الفنية بشكل مستقل.

وعندما نشبت الحرب الفرنسية الروسية سافر مونيه إلى إنجلترا هاربًا من هذه الحرب، وهناك عكف على رسم المناظر الطبيعية في حدائق لندن. وفي العام نفسه (1874) رفضت أعمال مونيه ورينوار وغيرهم من الفنانين مما حدا بهم لإقامة معرض مستقل لهم سُمي صالون المرفوضات وقد كان لهذا المعرض فضلاً كبيرًا في دخول الرسم والتصوير إلى مرحلة جديدة وهي مرحلة الحداثة.

في أول معرض لهم والذي أقيم في نيسان/أبريل 1874، عرض مونيه العمل الذي أعطى المجموعة اسمها الخالد. انطباع، شروق الشمس رسمت سنة 1872، تمثل مشهد ميناء لو هافر. من عنوان اللوحة الناقد الأدبي لويس لوروا استخدم المصطلح "الانطباعية" في مقالته معرض

الانطباعيون التي ظهرت في أشهر صحيفة في باريس في ذلك الوقت كان مقصود به الانتقاص لكن الانطباعيون اتخذوه اسم لهم.

تميزت رسوم ولوحات مونيه، باقتناص روح الطبيعة .. التي كانت تتمثل في الشمس والأشجار والزروع والمياه والصخور .. مع الشخصيات التي تحمل وجوهًا وضاءة بملامح النبل والجمال الهادئ .. مثل نرى في لوحته لامرأة بالشمسية «صاحبة العظمة» .. كما صور المراكب الشراعية وحركة الحياة على البحر والزهور والسماء الممتدة بزرقة نقية حالمة تعكس لصفاء الطبيعة وصفاء حياة البشر التي تتوحد مع المرح والانطلاق كما في لوحته الغذاء على العشب التي تختلف عن لوحة إدوارد مانيه بالاسم نفسه فالأولى تحتوى على عشرة أشخاص ما بين جالس وواقف يفترشون الأرض مع وجبة الغداء .. أما الثانية فتتكون من أربعة شخوص امرأة بين رجلين وفى الخلفية امرأة أخرى .

وقد استهوته أشجار النخيل التي قال عنها: «يا لها من أشجار باسقة متوهجة .. ستقودني إلى الجحيم».

وقد صور الشمس في أعماله حتى قال عنها لصديقه الفنان رينوار: «ما زلت أصارع وأطارد الشمس في رحلة مضنية وممتعة في الوقت نفسه، فالمرء يحتاج إلى الذهب والأحجار الكريمة لرسمها».

وكانت لوحته التي أطلق عليها: «تأثير .. ضوء الشمس» وشارك بها عام 1872 في أول معرض للتأثيريين .. وعند زيارة أحد النقاد .. وعند مطالعته لعنوان اللوحة أطلق على مجموعة الفنانين المشاركين التأثيريين أصحاب المدرسة التأثيرية التي أطلقت ثورة الفن الحديث في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر.. واعتمدت على اللمسات القصيرة .. وتحويل العناصر والأشكال في الطبيعة إلى قطع من الضوء تتلاشى فيها الخطوط .. ولا يبقى منها سوى اللمسات الضوئية، وهنا انتقل الفن من المنهج الأكاديمي الذى يعتمد على الإمعان في التفاصيل .. ودقة التصوير الكلاسيكي .. ومثل مونيه يستحضر معه 16 لوحة ويقف أمام كاتدرائية رواند يرسم واجهتها في لحظات عديدة تتغير فيها زوايا الضوء .. من لوحة إلى لوحة أخرى بدءًا من الشروق إلى تعامد الشمس .. وحتى الغروب.. كما رسم كوبري لندن بالطريقة نفسها.. وقد كان لمونيه مركب يجوب به نهر السين مصورًا الطبيعة وعذوبتها ولحظات انطباع الشمس عليها. وقد تحولت لمسة مونيه في النهاية إلى شكل من أشكال الاختزال يقترب من التجريد .. فقد كان يصور روح الطبيعة بعيدًا عن التفاصيل المملة .. وكانت رحلة مونيه رحلة عريقة صاخبة بسحر الفن ..

رحل كلود مونيه عن عالمنا عام 1926 بعد آن أصيب بالتهاب رئوي .. عن عمر 86 عامًا .. بعد أن غنى بريشته للحياة.. الناس والطبيعة في مئات اللوحات.

لوحة المرأة والمظلة

رُسمت هذه اللوحة عام 1867 لاهاي، هولندا هذه اللوحة موجودة في متحف اللوفر بباريس